

بين الحرب والجغرافيا

الخطط الكبرى في الحرب العالمية الأخيرة

يُميز العسكريون في دراسة الحرب بين الخطط التكتيكية والخطط الاستراتيجية . وهم يقصدون بالأولى خطط الحرب التي تتصل بحركات الجند المحلية في الميدان ، وتوجيهها حسبما تقتضى به فنون الحرب ، وظروف الطبيعة ، وحاجات القتال من يوم ليوم ، أو من ساعة إلى أخرى ؛ ويتولى وضع هذه الخطط والقيام على تنفيذها قواد الميدان وضباطه المحاربون . أما الخطط الاستراتيجية فيقصدون بها رسم سياسة الحرب الأساسية ، وإدارة دفتها فيما يتصل بمناطق الارتكاز الكبرى ، والمواقع ذات القيمة العسكرية الحيوية ؛ ومن حيث خطوطها واتجاهاتها الأساسية في توجيه الحركات الكبرى في الهجوم أو الدفاع . ومثل هذه الخطط الاستراتيجية كثيراً ما يشارك في وضعها رجال الدولة من غير العسكريين ؛ فرسمها يحتاج إلى أفق أوسع من الأفق العسكري الخالص ؛ كما أنها تتصل بتنسيق أداة الحرب كلها تنسيقاً يشمل مختلف مرافق الحياة الإنتاجية ، ويوجه عمليات الحرب في ميادين متباعدة أشد التباعد ، تشرف عليها — في حالة الحروب العالمية الحديثة — أكثر من دولة واحدة ، ويتوقف النجاح فيها على عوامل كثيرة ، بعضها سياسى يتصل بالمعاهدات والمحالفات والاتفاقات السرية والعنوية ، وبعضها اقتصادى يتصل بالإنتاج والتموين والنقل وتبادل المعاونة ، وبعضها الآخر معنوى يتصل بالمبادئ والمثُل العليا في السياسة ونظام الحكم وفى الدين والاجتماع عند مختلف الأمم والشعوب .

ومهما تكن تلك العوامل التي تتصل برسم خطط الحرب الأساسية ، فإن العهد الحديث قد امتاز بأن العلم أصبح فيه يوجه حياة الإنسان ونشاطه بما فى ذلك الحرب ذاتها ، وهى لا تعدو أن تكون مظهراً عنيفاً من مظاهر النضال والكفاح من أجل بقاء الأصلح . ولذلك فقد اتصلت أداة الحرب

وإدارتها بألوان مختلفة من العلم والتنظيم العلمي ؛ وأصبح لزاماً لكي تنجح الحرب أن يسبقها ويصحبها تنظيم فني دقيق يستند إلى أسس علمية وعملية في الوقت ذاته . فالجرب الحديثة تعتمد على السلاح الذي لا ينتجه غير العلم والتطبيق الفني للمعرفة العلمية ، كما تعتمد على دقة التنظيم وحسن التوجيه في استخدام ذلك السلاح الذي لا يفيد مضائوه إلا إذا استعمل في اتجاهه الصحيح ، وفي حدود خطته المرسومة . وفوق ذلك كله فقد زاد من اعتماد الحرب والتسلح على العلم والمعرفة والمهارة الفنية وحسن التنظيم والتنسيق أن الحرب قد أصبحت في العصر الحديث « شاملة » للحياة المدنية في جميع مرافقها ، وأصبح المحاربون فيها لا يقتصرون على أولئك الذين يقفون في الصف الأول وفي جبهة القتال ، وإنما يشملون أيضاً أولئك الذين يعملون في الإنتاج والنقل وتنظيم الأداة والإدارة في المدن والمصانع وفي الحقول والمناجم ، بل وعلى طرق البر والبحر والهواء . ولذلك كله فإن تنظيم الحرب أصبح معناه تجنيد الحياة القومية كلها . وفي هذا المهد الذي أصبحت فيه السلم استعداداً وانتقالاً إلى الحرب صار لزاماً أن يشمل التخطيط والتنظيم والتوجيه حياة الأمم في السلم والحرب على السواء .

على أن ما يعيننا في هذا المقال إنما هو أن نحاول تتبع الحرب العالمية الأخيرة في خططها الكبرى من ناحية التنفيذ وإجراء الحرب ذاتها ، وتوجيه حركات الهجوم والدفاع من الجانبين توجيهاً يتمشى مع ظروف الطبيعة والمواقع الجغرافية ، ويعين على كسب الحرب في النهاية . ومن المتفق عليه بين العسكريين أن الحرب العالمية الأخيرة جاءت في جولتين ، فصلت بينهما فترة استجمام واستعداد بين الهدنة في عام ١٩١٨ واستئناف القتال في عام ١٩٣٩ . بل إن من المتفق عليه أيضاً أن هذه الحرب بجولتها إنما ترجع في الأصل إلى دوافع تتصل بنهضة ألمانيا الحديثة وسعيها إلى أن تستكمل أسباب قوتها وسلطانها بين جاراتها الأوربية من جهة ، وإلى أن تتوسع فيما وراء البحار وتنتزع السيطرة العالمية من بريطانيا سيدة البحار من جهة أخرى . ولذلك فإن خطط الحرب في الجولتين وما سبقهما وتوسطهما من فترات استعداد إنما هي خطط ترمي إلى غاية مرسومة ومحددة ، هي السلطان في أوروبا والسيطرة فيما وراء البحار ؛ ولذلك فإنه على الرغم من اختلاف ظروف الحرب في الجولة الأولى عنها في الجولة

الثانية ، فإن هناك عناصر مشتركة بين الجولتين لا يمكن إلا أنه يلمسها الباحث الذي يعني بالأساس والجوهر قبل أن يعنى بالعرض والمظهر .

وقد بدأت ألمانيا استعدادها للحرب والنضال ضد بريطانيا في مطلع القرن الحالى ، فدعمت مركزها في القارة ، لا سيما قلبها وجنوبها الشرقى ، ووثقت صلاتها بإمبراطورية النمسا والمجر القديمة وكذلك بإيطاليا ، وكونت كتلة قوية من دول الاتحاد الثلاثى وأنصارها . ثم سعت في الوقت نفسه إلى تقوية أسطولها وإعداده للنضال المقبل من أجل سيادة البحار . ولكنها من هذه الناحية كانت أعجز من أن تعد أسطولا يعادل أسطول بريطانيا ، التي كان لها من التقاليد البحرية والخبرة بالملاحة وحرب البحار ما تجتمع خلال أجيال طويلة ، كما كان لها من أساطيل التجارة والحرب ما لا يمكن أن يبنى مثله ولا أن يعد رجاله إلا في فترة طويلة من الزمن . ومع ذلك فقد أحست بريطانيا بمصدر الخطر والمنافسة الجديدة ، فضاعفت جهودها في الاستعداد البحري ، كما أخذت سبيلها إلى إنشاء محالفات أوربية تناظر ما سعت إليه ألمانيا في قلب القارة . وكان أن حالفت بريطانيا فرنسا في الغرب ، كما حالفت روسيا في الشرق ؛ وسعت الدبلوماسية البريطانية إلى أن تقطع السبيل على ألمانيا في زحفها السياسى والاقتصادى نحو جنوب القارة الشرقى وأرض الإمبراطورية العثمانية .

تلاحقت الحوادث واقترب الخصمان الأصليون من أن يقفا وجهاً لوجه ؛ وتطير الشرر وكاد يشتعل لهيب الحرب أكثر من مرة . وكان أبرز إنذار جدى بالحرب حادث أجادير في عام ١٩١١ ، عندما شخصت قطع من أساطيل الطرفين إلى ذلك المرفأ الصغير على ساحل إفريقية الشمالية الغربية ، وظهر التحدى الذى لا يمكن أن يكون وراءه غير الشر ، ولا يمكن أن ينتهى إلى غير الصدام ! . . . وهكذا لم يعد إشهار الحرب الفعلية إلا مسألة زمن واتتهاز للقرص .

وجاءت الفرصة في وقت أحست فيه ألمانيا وأنصارها ، أو خيل إليهم ، أنهم قد استكملوا الاستعداد ، وأن من الخير أن يبدءوا النضال قبل أن يتجمع لحلفاء الغرب أكثر مما تجمع لديهم من قوة ، بل قبل أن يتخذ هؤلاء الحلفاء عدتهم كاملة وحذرهم شاملا ، بعد أن تكررت عليهم النذر ، وتوالت قرائن الشر من المعسكر الجرمانى النمساوى . وهكذا شهرت الحرب ؛ وكان طبيعيا

أن تشتمل أول الأمر في أرض البلقان ، تلك المنطقة التي تختلط فيها القوميات وتتنافر المصالح ، وتجري تيارات السياسة الدولية في كل اتجاه . كما كان طبيعياً أن الحرب متى بدأت واشتركت في إثارتها دولة كبرى كإمبراطورية النمسا ، فلن يكون إلى حصرها من سبيل . ولا بد من أن تنتشر لتشمل أوروبا كلها : فالحدود السياسية بين الدول في هذه القارة يصح أن يكون كثير منها مثار نزاع ؛ لأنها لا تتمشى مع الحدود الطبيعية ، ولا مع توزيع السلالات والقوميات ، ولا مع ما لكل دولة من مجال اقتصادي حيوي . وبذلك فقد كان الجو مهيأً لأن يشارك المتذمرون — وما أكثرهم ! — في حرب أقل ما يقال فيها إنها تشبع رغبة نفسانية ، وتعلل الشعوب بأمال لم تحققها السلم ولا وسائلها السلمية ، فعسى أن تحققها الحرب وما تنتهي إليه من نصر يطمع فيه الجميع !

وتطورت الحرب سريعاً ، واتضح خطتها ، فصار لها ميدانان : أحدها غربي والآخر شرقي . وفي الغرب اتجهت ألمانيا صوب أراضي بلجيكا في السهل الجنوبي من الأراضي الواطئة ، رغم أن المعاهدات الدولية كانت تضمن استقلال تلك البلاد . ذلك أن طريق الأردن والفلاندر كان طريق الغزو التاريخي لمن يريد أن يأخذ فرنسا من أيسر سبيل ، ولمن يريد أن يقف في مواجهة بريطانيا ، ويتخذ لنفسه قواعد بحرية لحرب الغواصات وحصار الجزر البريطانية وقطع طرق البحر التي هي كجبال الوريد بالنسبة لبريطانيا . ومع ذلك كله يظهر أن ألمانيا لم تكن مستعدة الاستعداد كله عند ما أقدمت على هجومها هذا ؛ فهي من ناحية البر لم تستطع أن تبلغ هدفها وهو باريس ، وإنما وقفت دونها من الشمال الشرقي ، حتى جاء جوفر وهزم طلائع جيوشها هزيمة منكرة في موقعة المارن في مطلع الحرب ، على بعد عشرات قليلة من الكيلو مترات من العاصمة الفرنسية ، ورد فريقاً من الألمان على أعقابهم ، كما أجبر قواتهم الأساسية على أن تحفر خنادقها لتقيم فيها انتقاء للارتداد . وبالتدرج تحولت حرب الميدان الغربي من حرب متحركة على سطح الأرض إلى حرب خنادق ، ترابط فيها الجيوش تحت الأرض ، ولا تتحرك الجبهة إلا زحزحة من أحد الجانبين أو الآخر لمسافات قصيرة لا تذكر . فكأن الحرب في هذا الميدان قد شلت حركتها ، وتقرر مصيرها أن تصبح حرب مناوشات طويلة الأمد ، تستنفد الجهد ولا تؤدي

إلى نتيجة سريعة . وقد بقيت كذلك بل بقي هذا الميدان الغربي أتوناً يلقي فيه الجانبان برجالهم الفرقة تلو الفرقة ، فيحصدها الموت دون أن يستطيع أحد الجانبين أن يحقق نصراً يذكر . ولم ينقذ الموقف آخر الأمر إلا انحلال الروح المعنوية ، ثم قيام الثورة الداخلية في ألمانيا عام ١٩١٨ ، مما استتبع انسحاب جيوش الألمان عن مواقعها في الغرب ، وتقدم الحلفاء في نصر غير صريح من الناحية العسكرية الخالصة ، ولا مسلم به من جانب الجيش الألماني وقادته على الأقل . وهكذا انتهى الأمر « بهدنة » ربما كان مرجعها ضيق النفوس بالحرب ، وسأها من عدم الوصول إلى نتيجة فاصلة ، أكثر مما كان مردها إلى نصر حاسم من جانب الحلفاء . وقد ارتدت جيوش ألمانيا البرية إذ ذاك إلى ديارها في نظام عجيب .

فأما من ناحية البحر فيظهر أن استعداد ألمانيا أيضاً لم يكن كاملاً . فقد حرصت بريطانيا في الفترة السابقة للحرب على أن يكون أسطولها معادلاً لمجموع أسطولى أية دولتين أوروبيتين معا . ولذلك بقي الفرق كبيراً في القوة بين أسطول بريطانيا وأسطول ألمانيا . ولم تستطع قوات ألمانيا البحرية أن تبلغ نتيجة فعلية أو فاصلة في شل حركة الملاحة من حول بريطانيا ، وإجاعة أهلها أو إرغامهم على التسليم . ومع أن ألمانيا قد اتجهت منذ البداية نحو إنشاء أسطول قوى من الغواصات وبثه حول بريطانيا ، فإن هجوم تلك الغواصات لم يبلغ ذروته من القوة إلا في عام ١٩١٧ . ومهما قيل عن أن بريطانيا قد شارفت على الهلاك والتسليم في ذلك العام ، فإن الشيء المهم أنها قاومت ، وأن عدم استطاعة ألمانيا أن تبلغ شأو هجومها البحري على قوافل السفن وطرق الملاحة قبل ذلك اعطى بريطانيا الفرصة لإتمام الأهبة ومواجهة الهجوم بما انتهى إلى إحباطه ولقد كان عامل الزمن على الدوام في جانب البريطانيين !

كل هذا حدث في الغرب ، وقد كان الميدان الأصلي والأهم في حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . فأما في الشرق فقد تقدم الروس سريعاً في أرض بروسيا الشرقية ؛ ولكن الألمان مالبنوا أن هزمهم شر هزيمة على يد قائدهم هيندنبيرج ؛ كذلك تقدمت جيوش الروس ثم ارتدت في أراضي غاليسيا وعلى حدود إمبراطورية النمسا والمجر ، ثم أصيبت تلك الجيوش بخسائر فادحة في عامي ١٩١٦ ، ١٩١٧ ؛ وساعد ذلك على قيام ثورة البلاشفة . ومع أن ذلك كان مما يجوز أن

يطمع الألمان والنسويين ، وأن يغريهم بجارتهم العتيده ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بقدر ؛ فهم كانوا فيما يبدو مشغولين بالحرب فى الغرب والجنوب . وعلى كل حال فإن الحرب فى الميدان الشرقى ما لبثت أن دخلت فى مرحلة ركود ، انتهت بانكماش روسيا وانطوائها على نفسها ، بعد أن وجد البلاشفة أن من الخير أن يعكفوا على إصلاح الحال فى بلادهم ، وأن يدعوا الرأسماليين والاستعماريين يدق بعضهم أعناق بعض فى ميادين الغرب والجنوب .

وفى جنوب أوربا كان هناك الميدانان الإيطالى والتركى . فى أرض إيطاليا كانت تلك الدولة ، إلى حد ظاهر ، عالة على حلفائها ، أكثر مما كانت عوناً لهم . فقد وقفت إيطاليا متذبذبة فى أول الأمر ؛ رفضت أن تحارب فى جانب حلفائها الأسبقين ، وهم الألمان والنسويون ، بحجة أنهم بدءوا الحرب بالهجوم ، ولم يكن حلف الاتحاد الثلاثى المعقود فى عام ١٨٨٢ ليقيدها بمد يد المعونة إلا فى حرب الدفاع . ومع ذلك فهى لم تقف فى جانب حلفاء الغرب صراحة إلا بعد مداولات ومداورات وشروط تضمنتها معاهدة لندن السرية فى عام ١٩١٥ . وأخيراً دخلت إيطاليا الحرب فإذا بجيوشها تتذبذب بين النصر والهزيمة ؛ ثم إذا بها تحتاج إلى العون لدرء الهزيمة ، ولمنع النمسيين من الالتفاف وأخذ الميدان الفرنسى من الجنوب . وقد أدرك حلفاء الغرب ارتباط الميدان الإيطالى بالميدان الغربى من الناحية الاستراتيجية ، فأمدوا إيطاليا بالعون ، وساعدوها على حماية جناحهم ضد النمسيين حتى حانت ساعة النصر .

أما فى الميدان التركى فقد تعقدت الأمور ، واستمر النضال سجالاتاً فى البر والبحر . وكان الألمان قد أدركوا قيمة الشرق الأوسط فأتوه من بابه فى القسطنطينية ، وسندوا قوات تركيا المتداعية . ولكن الحلفاء كانت لهم قواعد هامة فى ذلك الشرق ، لاسيما فى مصر التى ما لبث البريطانيون أذ توسعوا منها إلى البلاد العربية ، حيث استغلوا ثورة العرب ضد الأتراك . واتهى الأمر بانقشاع نفوذ العثمانيين وزوال سلطانهم ، وحلول نفوذ الحلفاء ، لاسيما بريطانيا محل الدولة العثمانية فى كثير من أرجاء العالم العربى . والمدهش أن الحرب الأصلية انتهت فى أوربا ، ومع ذلك فقد استمر الحلفاء الإنجليز والفرنسيون لعامين أو ثلاثة يحاربون لتوسيع نفوذهم وتثبيت أقدامهم فى أراضى العرب بعد أن أبرزت الحرب قيمة تلك البلاد ومواقعها فى ربط طرفى العالم .

وكان هناك ميدان آخر منعزل في تلك الحرب هو ميدان المحيط الهادى . فقد ارتبطت اليابان ببريطانيا بمحالفه عسكرية منذ عام ١٩٠٢ ، وتعلم اليابانيون كثيراً من شؤون التجارة والاتصال بالعالم الخارجى من حلفائهم ومعلمهم البريطانيين ؛ وتعلموا منهم كذلك فنون الحرب البحرية وقيمة الأساطيل الحديثة بالنسبة لإمبراطورية من الجزر ، تريد أن تنشر نفوذها وأن تكون لها السيطرة على ما حولها من بحار . وقد بادرت اليابان بإعلان الحرب على ألمانيا ، ثم انطلقت بأساطيلها وقواتها البحرية فطردت الألمان من كثير من جزر المحيط ، وحلت محلهم في مناطق النفوذ العسكرى والنقط الاستراتيجية الهامة في تلك الجزر ؛ ثم احتفظت لنفسها بالانتداب عليها بعد الحرب ، واتخذت منها قواعد توثبت منها في حربها الأخيرة ومحاولتها التوسع على حساب حلفائها السابقين

من هذا العرض السريع نستطيع أن نتبين أن خطط القتال في الجولة الأولى من الحرب العالمية كانت تدور ، إلى حد كبير ، حول التنافس الأصيل بين بريطانيا وألمانيا من أجل السيطرة على اتصالات أوروبا بالعالم الخارجى . ولم تخسر ألمانيا تلك الجولة لأنها انهزمت في البر ؛ وجيوشها بقيت إلى النهاية منتصرة في الميدان الشرقى ، انتصاراً سجلته معاهدة برست ليتوفسك مع الروس في عام ١٩١٨ ؛ وجيوشها لم تهزم في الغرب انهزاماً ماحقاً ، بل إن معارك الحرب البرية لم تدرفوق أراضي ألمانيا ذاتها ، وإنما كانت في خارجها ، وبقيت كذلك حتى تراجعت جيوش الرايخ إلى أرض الوطن ، غير مطاردة ولا محتلة النظام . وقد خسرت ألمانيا الجولة لأنها لم تتخذ من قوة البحر وقواعده ما تستطيع به أن تتخندق بريطانيا عدوها الأصيلى . . . بل عدوها الذى استطاع أن يؤلب من حوله الأضرار والحلفاء في الغرب والشرق ، وفي العالمين القديم والجديد ، فاشتمل معسكر بريطانيا وحلفائها على حكومات تمثل ١٤٣٠ مليون من سكان العالم ، على حين لم يبق في معسكر ألمانيا غير حكومات تمثل ١٦٠ مليون فقط . وهكذا لم يكن النصر غير مسألة زمن ؛ حتى إذا انهارت جبهة ألمانيا القومية في الداخل جاء النصر كالثمره هزتها الريح فسقطت ، وكان سقوطها في الميدان الغربى . وانقضت الفترة ما بين الهدنة في عام ١٩١٨ وإعلان الحرب في الجولة الثانية عام ١٩٣٩ . ولما كانت الحرب في جولتها الأولى لم تصل إلى نتيجة فاصلة ، فإن

الدوافع الأولى والعوامل الأساسية التي أدت إلى الحرب في عام ١٩١٤ ما زالت باقية . فأوروبا قارة صغيرة ، تتراحم فيها الأمم ، وتختلط الحدود ، وتتداخل القوميات ، وتتشابك المصالح والمواصلات ؛ فلا يمكن أن تستقر العلاقات بين الدول على حال واحدة إلى أجل طويل . وأوروبا لها مصالح فيما وراء البحار ، تطمح ألمانيا ، وهي الدولة الكبرى التي تتوسط القارة ، في أن تنتزع السيطرة عليها من بريطانيا التي تقف على باب القارة ، وتحتكر السيطرة على طرق البحار ، وموارد كثير من مناطق النفوذ والمستعمرات . وقد استغرقت ألمانيا بضع سنوات قبل أن تفيق من صدمة ١٩١٨ ؛ ولكن نهوضها كان أسرع كثيراً مما تصور أكثر الناس في ذلك الوقت . وسرعان ما أدرك الحلفاء أن ألمانيا قوة لا يمكن كبتها ، كما لا يمكن تنظيم أوروبا تنظيمًا مجدياً بدونها ؛ فكانت اتفاقات لوكارنو في عام ١٩٢٥ ، ودخول ألمانيا في عصبة الأمم . ومع ذلك فلم يكن من المعقول ولا الطبيعي أن ترضى ألمانيا بوضعها هذا ، وأن تقنع بما تركت لها معاهدة فرساي من مجال حيوى مبتور الأطراف مقصوص الجوانب ، وهي الأمة التي تستشعر ، من مواردها في الثروة والرجال ، ومن موقعها الجغرافي ومكاتها في النهضة الأوروبية الحديثة ، ما يؤهلها لأن تترغم القارة . ولذلك كله ما لبثت خطط ألمانيا أن برزت من جديد ؛ وأراد قادتها هذه المرة أن يكون وضع خططهم على أساس من الدراسة والتقدير أكثر عمقاً وأبعد مدى مما حدث في العهد القيصري ؛ فرأينا النازية الحديثة تضع نصب أعينها عدة أمور : أولها حسن التنظيم والتربية في الداخل حتى لا تتكرر مأساة الثورة الداخلية التي جلبت في نظرهم هزيمة ١٩١٨ ، ثم توطيد نفوذ ألمانيا في القارة ذاتها حتى لا تشغل الدولة نفسها بحروب محلية عند ما يحين وقت الكفاح العالمي ؛ ولذلك سعى الرايخ حينئذٍ لاستعادة أراضيه في السار ، ووحد ما بين ألمانيا والنمسا ، وضم جانباً من تشكوسلوفاكيا ، وعمل جاهداً لاستعادة دانزج وأجزاء معينة من بولندا ، ولو أنه لم يوفق لكل ما يريد . كذلك رسم قادة النازي خططهم على ألا يحاربوا في جبهتين أو أكثر في أوروبا أو خارجها إلا مضطرين تحت قهر الظروف . ذلك أنهم قدروا أن قوة ألمانيا في تماسكها كتلة واحدة تضرب في اتجاه موحد . ومع ذلك فقد قدروا للظروف احتمالاتها ، فكسوا ألمانيا بشبكة من الطرق الجيدة ، وأعدوا عدتهم بل اتخذوا عتادهم من النوع الميكانيكي

السريع الحركة والذي يسهل نقله من ميدان إلى ميدان ، ووضعوا خطط ما أسموه بالحرب الخاطفة ، تلك التي تمكنهم من الضرب يميناً أو شمالاً بأسرع ما يكون ، والتي يتحول معها القتال من حرب مواقع إلى حرب حركة . وهم في ذلك كانوا قادة ومنظمين عسكريين من طراز جديد ممتاز . ولكنهم للأسف — أو لحسن الحظ — لم يقدرُوا عوامل أخرى ؛ منها أن هذا النوع من القتال السريع يقتضى الوصول إلى نتائج فاصلة وحاسمة في أقصر وقت ممكن ؛ وأن الخطة الخاطفة إن أخفقت في الوصول إلى غايتها كاملة كانت عرضة للانهياب ؛ لأن عامل الزمن يكون على الدوام في الجانب الآخر وضد صاحب الحرب الخاطفة . وقد أدرك أعداء الألمان من البريطانيين والروس هذه النقطة إدراكاً عميقاً ، وإن قصر عن إدراكها الفرنسيون . فما إن لمح البريطانيون منفذاً إلى إطالة الحرب في أية صورة حتى تفذوا منه ؛ وما إن رأى الروس وسيلة إلى تشتيت جهد الغزاة من الألمان والمصاربة لهم لإطالة النضال يوماً واحداً حتى عمدوا إليها . وهكذا كان الألمان مقامرين في حربهم وفي خططهم ؛ قد ركزوا كل قواتهم في اندفاعات خاطفة كان من الجائز أن تصل بهم إلى نتيجة فاصلة ، ولكنهم لم يقدرُوا أن أى تعطيل أو انحراف عن الوصول إلى الغاية المحددة في الوقت المحدد معناه أن السهام تطيش وويل لمن تطيش سهامه في حرب حديثة يتكلف فيها إعداد السهم من القوى والموارد ما لا سبيل إلى تعويضه !

كذلك أخطأ الألمان وأنصارهم في تقدير بعض العوامل الجغرافية الكبرى ، التي كان لها أعمق الأثر في تحديد مجرى الحرب ، والتي كان ينبغي أن يحسبوا لها حسابها وأن يجعلوا لها من القيمة أكثر مما فعلوا . وأول هذه العوامل أن ما يقارب ثلاثة أرباع سطح الكرة يغطيه الماء ، وأن من يريد أن يتسلط على شؤون هذا الكوكب والاتصالات سكانه بعضهم ببعض ينبغي أن تكون له سيادة البحر ، وأن يسيطر فوق ذلك على مواقع وقواعد بحرية حصينة على طول طرق المواصلات ؛ فإذا لم تيسر له هاتان الميزتان وجب أن يرسم خطته على أن يحصل منهما على أكبر قدر مستطاع . وقد يظهر أن الألمان النازيين أدركوا هذه الحقيقة إدراكاً كاملاً ؛ ولكنهم على كل حال قصروا دون إدراكها على وجهها الكامل الصحيح ، وأرادوا أن يستعوضوا عن قصورهم من هذه الناحية

بقوة الجو، التي أضفت عنصراً جديداً في الحرب الآخيرة، ولكنها لم تغير الحقائق الجغرافية الثابتة. وقد رأينا النازيين في مطلع الحرب في الجبهة الغربية، أى في صيف عام ١٩٤٠، يحتلون شواطئ أوروبا الغربية على نطاق أوسع كثيراً مما فعلوا في الحرب السابقة؛ فهم قد احتلوا النرويج والدانمرك وسواحل هولندا وبلجيكا وسواحل فرنسا الغربية كلها حتى حدود أسبانيا الموالية. وكان قصدهم من وراء ذلك أن يقفوا في مواجهة بريطانيا على طول الساحل، فتتخذ غواصاتهم وطائراتهم قواعدهما في كل مكان، تشن الغارة وتبعث الرعب في البحار المحيطة ببريطانيا، كما تضاعف الصعوبات أمام الأسطول البريطاني في محاولته ضرب الحصار البحري على القارة الأوروبية. ولكن الألمان لم يدركوا أن هذه الخطة لا يمكن أن تنجح وأن توتى نتيجتها إلا إذا صحبتها — بل سبقها — خطة أخرى ترمى إلى إنشاء أسطول بحري يناظر الأسطول البريطاني المرابط حول الجزر البريطانية ويكون كفوفاً لمنزلته في عرض البحر. فقد ثبت أن الأسطول الألماني بتكوينه الذي كان عليه عند قيام الحرب كان مضطراً إلى الالتجاء معظم الوقت في موانيه وقواعده أو قرب السواحل التي تحميها الطائرات؛ وهو، فيما دون الغواصات، لم يساهم كثيراً في ضرب الحصار وتضييق الخناق على بريطانيا، التي تابعت قوافلها البحرية سيرها. وجاهد الألمان وكابروا طوال سنوات ثلاث كان عامل الزمن فيها حليف بريطانيا، حتى انتصرت هذه الآخيرة في موقعة الإطلنطي، وهي الموقعة الكبرى التي امتدت بطيئة خلال عامين بل ثلاثة على سطح المحيط، وتقرر فيها لمن تكون سيادة البحار وما يتبعها ويترب عليها من سيطرة عالمية.

وقد يختلف العسكريون في تقدير النتيجة لو أن هتلر تقدم وغزا بريطانيا عقب نصره الخاطف في صيف عام ١٩٤٠، ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نعترف بها هي أن هتلر لم يكن له من أساطيل البحر وعدته ما يسمح له بغزو بريطانيا إذ ذاك، وإلا لم يتراجع عن ذلك. ويظهر أنه جرب قوة الجو، فكانت موقعة بريطانيا الجوية في أواخر الصيف وأوائل الخريف من عام ١٩٤٠، نجاءت نتيجتها مشيطة للهمة مقعدة للعزم، واضطر هذا الفاتح الذي كانت الطبيعة أوسع من أن يشملها حسابه، وأفسح من أن يحيط بها تقديره، اضطر إلى أن يتواضع تواضعاً لم يكن بد من أن يجبر وراءه الهزيمة يوماً ما. فبريطانيا رأس

الحرب المدير ، ومصنع الحرب الدائب على الإنتاج ، وقاعدة الحرب التي لا بد أن يتجمع فيها من القوة والسلطان ما يؤذن بغزو القارة من جديد . وسرعان ما انقلب الوضع في الميدان الغربي من هجوم من ناحية ألمانيا ، إلى قعود ثم دفاع . وكان على ألمانيا إذ ذاك أن تحمص ذلك الشاطئ الطويل ، الذي امتد آلاف الكيلومترات ، والذي انقلبت مزية الطول فيه ، فصارت الآن على الألمان بعد أن قدر النازيون أن تكون لهم .

وفي غزو الميدان الغربي وإعادة فتح الجبهة الغربية تعلم البريطانيون من درسهم السابق في الحرب الماضية ؛ فهم لم يعمدوا هذه المرة إلى غزو القارة إلا بعد أن تأكدوا من أن قوتهم وقوة حلفائهم تبلغ أضعاف قوة العدو . ذلك أنهم لم يريدوا أن تفتح الجبهة قبل أن يكمل الاستعداد ، فتنقلب الحرب فيها إلى حرب خنادق يصح أن تطول إلى سنوات ، كما حدث في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ عندما كان الحلفاء يُعدّون فرقتهم ثم يبعثون بها إلى الميدان واحدة إثر أخرى فيحصدها الموت أولاً فأولاً ، وتلتهمها النيران قبل أن تصيب نجحاً يذكر . ولقد تجلّت شخصية تشرشل وواسع خبرته كرائد حرب وواضع خطة في أنه مارس في هذه المرة ضبط النفس وقاوم إلحاح أعدائه بل حلفائه ، لاسيما الروس منهم ، فلم يفتح الجبهة الثانية في عام ١٩٤٢ ، ولا في عام ١٩٤٣ ، وإنما انتظر حتى تم استعداده ، واستعداد الأمريكيين بنوع خاص ، في عام ١٩٤٤ وتمسك قبل ذلك بأن يكتفى حلفاء الغرب بحملة إفريقية الشمالية ، ثم بمناوشات الميدان الجنوبي ، حيث كانت إيطاليا أضعف نقطة في استحكامات المحور وقلعة أوروبا المحورية .

فأما الحقيقة الجغرافية الثانية التي لم يقدرها النازيون حق قدرها (كما لم يقدروا قيمة الاستعداد البحري الشامل) فهي أن مسافات اليابس ينبغي أن يحسب حسابها على وجه دقيق ، وأنه كلما طالت المسافات صعب الاتصال واستنفدت الطاقة البشرية . وأوروبا كما نعلم قارة تضيق في الغرب ولكنها تتسع كلما اتجهنا نحو الشرق ؛ ولذلك فإن الألمان كانوا كلما توسعوا نحو الشرق في الميدان الروسي اتسعت أمامهم المساحة وازداد طول الميدان ، حتى جاء وقت امتدت فيه جبهتهم من فنلدة في الشمال إلى البحر الأسود والقوقاز في الجنوب . واتساع الجبهة هذا معناه صعوبة التركيز في الهجوم ، الذي بدأ قوياً مركزاً ثم

وق في قوته وتهادى في سرعته وتراخى في اندفاعه ، حتى أصبحت الجبهة « خطأ » رقيقاً ، لا يصلح لمتابعة الهجوم ، بل لا يقوى على الثبات والدفاع . والواقع أن الطبيعة الجغرافية للميدان الروس لم تكن لتعين على نجاح غزو يأتي من الغرب ؛ لأن جهود النازي تشقت وتبعثر كلما توغل نحو الشرق ؛ وذلك بالطبع في مصلحة المدافعين . أما إذا جاء الهجوم من الشرق ، فإن قوى الغزاة وأجنحة جيوشهم تتجمع وتتركز ويقابل بعضها بعضاً ويسند بعضها بعضاً كلما توغلت نحو الغرب . ولعل هذا هو السر الأكبر في أن هجوم الروس المضاد بدأ في شعب متفرقة ، لاقى بعضها بعضاً حتى بلغت غايتها متساندة متكاتفه ، على حين تفرقت ريج الألمان وطاشت سهامهم في هجومهم المبعثر نحو الشرق .

والحق الذي تدل عليه كل القرائن أن هتلر وأعوانه عندما قرروا غزو روسيا في صيف ١٩٤١ لم يحسبوا للمسافات حسابها الدقيق ، ولم يحتاطوا لظروف المناخ والطبيعة الجغرافية إذا لم يتم النصر في خلال أشهر أو أسابيع معدودات ، كما كانوا يقدرون — فيما يقال — . وقد دفع قادة الحرب الهتلرية والمسؤولون عن خططها ثمن ذلك التقدير الخاطئ أرواحاً كثيرة بلغت عدة ملايين من الجانب الألماني وحده ، وجعلت من ذلك الميدان الشرقي طاحونة الحرب الضروس التي كلفت الإنسانية من الأرواح أضعاف ما كلفها الميدان الغربي ، الذي قصد به في أول الأمر أن يكون ميدان الحرب الأساسي .

وأما الحقيقة الجغرافية الثالثة التي غفل عنها المحوريون ، فهي أن الحرب العالمية مهما اختلفت أساليبها واتسعت ميادينها وتعددت جهاتها ، لا بد أن ترتبط فيها الخطط ، وأن يُنسق الإشراف على تنفيذها في مختلف الميادين والجهات . ومع ذلك فقد ركز الألمان جهودهم أول الأمر في ميدان واحد أو ميادين أوربيين ، وغفلوا أو تغافلوا عما وراء ذلك من ميادين . فقد سيطرت عليهم فكرة الحرب في ميدان واحد ، وتجنب الحرب في ميادين في آن واحد ، إلى درجة ملكت عليهم تفكيرهم في غير ذلك من فنون الحرب ومقتضياتها وأحكامها . ولذلك قد غفلوا عن ميدان إفريقية الشمالية شهراً متلاحقة بعد دخول إيطاليا الحرب إلى جانبهم حتى دفعوا ثمن إهمالهم غالباً في النهاية . ذلك أنهم تركوا الإيطاليين يحاربون حربهم في إفريقية الشمالية والشرقية حتى ضعفت قواعدهم وتضعفت مراكزهم في الحبشة بصفة خاصة ،

وحتى تمكن البريطانيون من أن يثبتوا أنفسهم في مراكز قيادتهم وقواعدهم الهامة في مصر وشرق إفريقيا بل وفي الشرق الأدنى أو الأوسط عامة . وبعد أن تم كل هذا تنبه الألمان والتفتوا إلى حليفهم ، وبعثوا بروميل ومدده إلى شمال إفريقيا . ولكن موقف البريطانيين كان قد أصبح من الثبات ، وجناحهم الجنوبي (الحبشي) والشرقي ، كانا قد أصبحا من الأمان بحيث استطاعت قواتهم وقوات حلفائهم الثبات أول الأمر ثم الاندفاع آخره ، حتى اكتسحت مواقع المحور في شمال إفريقيا ، وبلغ الحلفاء إيطاليا ، على نحو ما هو معروف .

وقد يحسن هنا أن نشير إلى ارتباط الحرب في كل من شمال إفريقيا وجنوب روسيا . فقد التفت الألمان فيما يبدو إلى الشرق الأوسط ولو متأخرين ، ولكنهم بدلا من أن يسعوا إليه مباشرة عن طريق اليونان والدوديكانيز ثم لبنان وسوريا والعراق ، أرادوا أن يبلغوه دائرين في حركة التفاف مزدوجة ؛ فدوا ذراعاً إلى روسيا الجنوبية والقوقاز ومدوا الأخرى إلى إيطاليا وشمال إفريقيا وصحراء مصر . ولكن الذراعين كانتا من التباعد واختلاف الظروف بحيث لم يكن مستطاعاً رسم خطة مشتركة توحد بين حركات الجيوش المهاجمة في كل منهما ، وتنسق تلك الحركات بحيث تستطيع إحدى الذراعين أن تعين الأخرى فيما قد تتعرض له من شدة أو محنة ، شأن كل ذراعين تعملان معاً ومن أجل غاية واحدة . ولعلها لم تكن مجرد مصادفة أن تنكسر إحدى الذراعين في ستالينجراد عندما انكسرت الذراع الأخرى في العلمين . ولقد كانت هاتان الموقعتان على أبواب الشرق الوسيط ، نقطة تحول قاطع في مجرى هذه الحرب العالمية . وفوق ذلك فإن عدم ارتباط الخطط المحورية فيما بينها قد تمثل في ناحية أخرى لا تقل خطورة عما سبق . . . ذلك أن اليابان حاربت إلى جانب المحور من أجل غاية مشتركة هي تحطيم الديمقراطية وسيطرتها العالمية ، ولكنها — فوق دخولها الحرب متأخرة شيئاً ما — حصرت نفسها في ميدانها وعملت من أجل مصالحها الخاصة . وقد كانت مقتضيات الحرب الحقيقية تحتم أن تسعى اليابان لتتصل بالمحور في الغرب عن أي طريق ؛ فتهاجم روسيا في الشرق مثلاً ، وبذلك تخفف الضغط عن الألمان في ميدانهم الشرق ، وتسعى لأن يلتقي جناحا المحور أو يتقاربا على الأقل في أرض الروس . أو توجه هجومها البحري في ناحية الهند وشرق إفريقيا وجزيرة مدغشقر وبحر العرب ، على أمل أن تقترب شيئاً ما

من قوات المحور الممتدة نحو البحر المتوسط والبحر الأحمر ، أو أن تقطع مواصلات الحلفاء البحرية في غرب المحيط الهندي وبين جنوب إفريقيا والهند والبحر الأحمر على الأقل . ولكن الذي حدث هو أن اليابان فصلت أن تعمل منفردة ولحسابها الخاص في ميدان المحيط الهادى ؛ وأن تركز قواتها في احتلال جزر الهند الشرقية وجزر المحيط الهادى ، ثم تتجه نحو استراليا بدلا من أن تتجه نحو المحيط الهندي . وقد شتتت اليابان بذلك قواتها في اتجاه لا يقربها من قوات المحور ومواقفها فيما وراء البحار . والواقع أن الحلفاء قد أفادوا من هذا الخطأ إلى أبعد حد ، حتى إنهم استطاعوا أن يرسموا خطتهم في مرحلتين : أولاها تقضى بالفراغ من الميدان الأوربي بتركيز الهجوم على إيطاليا وألمانيا ، مبتدئين بالأولى لأنها أضعف حلقات المحور ، حتى إذا ماتتوا من الفاشيين والنازيين فرغوا — وفرغت معهم روسيا ذاتها آخر الأمر — لليابان خطموها على انفراد .

نخرج من هذا الحديث بأن قصة الحرب العالمية ، كما عرضناها في هذه السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة ، قصة تستحق الدراسة والتفكير وإنعام النظر . وكلما تمقنا في دراستها برزت لنا نواحيها المختلفة ، واتضح لنا ارتباط نتائج النضال فيها بحسن تدبير الإنسان ومحاولة الاستفادة من الظروف الجغرافية العامة . والحق أن الحرب لم تعد مجرد قتال بين أقوى تجمع لهم من القوة فوق ما يستطيعون التحكم فيه ، وإنما هي قد غدت علما وفنا على السواء ، بحيث يستحيل على جاهل بعد اليوم أن يحارب بنجاح ، وبحيث لا يكتب الفوز بعد اليوم إلا لأولئك الذين يفكرون ويرسمون ويفيدون من عبر الماضي ، ويستجيبون لما تقتضيه ظروف البيئة التي يحاربون فيها . وويل لأولئك الذين يندفعون بعد اليوم في حرب لا يدركون الغاية منها إدراكا صحيحا ، ولا يحسنون ترسم الطريق الذي ينبغي أن تسير فيه .

وقد يفيدنا وينير سبيل المستقبل أمامنا أن نحاول الخروج من هذه الحرب المنتهية بدرس أخير . ذلك أن هذه الحرب بجولتها إنما قامت في الأصل على أساس النزاع بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية . وقد أخفق الأولون لأنهم لم يرسموا خططهم كما ينبغي أن ترسم ، أو هم قد رسموها متأثرين

بعامل التحدى والاستفزاز بدلا من أن يتأثروا بعامل الفكر الرصين والترسم الهادى لظروف الميدان . وقد نجح البريطانيون لأن خبرتهم فى الاحتكاك الدولى وسياسة القتال العالمى كانت أطول ، ولأن استجابتهم لظروف الطبيعة ومقتضياتها كانت أقوى ، ولأن عامل الزمن كان على الدوام فى جانبهم

ولكن الشىء المهم الذى انتهت إليه هذه الحرب هو أن البريطانيين قد نجحوا هذه المرة فى إزالة عدوهم أو إبعاد خطره المباشر إلى أجل طويل . وقد يكون ذلك خيراً بالنسبة لبريطانيا ومستقبلها ولكنه قد لا يكون كذلك ؛ فقد كانت ألمانيا على الدوام عامل توازن فى قلب القارة الأوربية ، كما كانت مصدر خطر تألب لمكافئته أهل القارة فى الشرق والغرب . ففى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ مثلا اتفقت روسيا القيصرية ، رغم كراهيتها للحرية والديمقراطية ، مع بريطانيا التى كانت مهد الحياة النيابية ومبعث الديمقراطية التى تستند إلى الحرية . وفى حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ اتفقت روسيا البلشفية مع بريطانيا الرأسمالية ، فكان الخطر الجرماني باعث الوحدة بين متناقضات القارة الأوربية بل كان نطاق الأمان الذى يعزل بين متناقضات لا يمكن إلا أن تصطدم أشد اصطدام إن هى تلاقى وجهاً لوجه ! والآن وقد زال هذا الخطر الجرماني المشترك ، أو كمن إلى أجل طويل ، فهل ينتهى بزواله دافع الوحدة بين طرفى القارة ؟ وهل يحتفى ذلك العدو المشترك فلا يجد الروس الصقالية ، أو لا يجد الإنجليز السكسونيون أمامهم عدواً آخر غير حليفهم القديم ؟ وهل يخفى القدر لأوربا أن تنقسم الآن إلى معسكرين اثنين فى الشرق والغرب ، بعد أن كانت منقسمة إلى معسكران ثلاثة فى الشرق والوسط والغرب ؟ وهل يكون التصادم بين طرفين أشد عنفاً ، وأكثر تخریباً ، وأذى إلى الفناء والإفناء مما كانت عليه الحال بين أطراف ثلاثة ، يسهل أن يتفق اثنان منها على الثالث ، فيجىء النصر قبل أن يستحيل القتال إلى حرب فناء ؟ وهل يجىء فى أعقاب ذلك كله أن يختل توازن القارة وتترنخ مدنية أوربا ، أو تدك معالمها ، فيداول الله الأيام بين القارات كما يداولها بين الناس ؟ أسئلة كثيرة قد لا يستطيع أن يجيب عنها إجابة صحيحة سليمة غير الزمن ! ولعل أبلغ حكم الله سبحانه وتعالى فى الخليقة أن الزمن يسير !